- ١ -

فَصَاحةُ القُرآنِ ومُبَشرَاتٌ صَادِفَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

نبدأ حديثنا هذا مع أعظم سجين في التاريخ مستعينين بالله - عز وجل - ونحن نعيش مع كتابه - جل في علاه - الذي هو العروة الوثقى، وهو الكتاب الخالد والمعجزة الكبرى لرسولنا - عليه الصلاة والسلام - مع الهدى والنور والشفاء والرحمة والموعظة والتبيان لكل شيء، والبرهان والحجة القاطعة، واخترت سورة يوسف؛ لأنها من أعظم القصص، حتى قال بعض أهل العلم: إنها أعظم قصة سمعنا بها، قال سبحانه- كما سوف يأتي معنا-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وأحسن القصص، قالوا: سورة يوسف؛ لأن فيها من قصص الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - والملوك والتجار والفقراء والحبس والشدة والفرج والغنى والفقر، وذكر الفاحشة والعفاف، وذكر الذنب والمغفرة، والرؤيا المنامية، والأخبار في اليقظة، وقالوا: أحسن القصص؛ لأن كل ما جاء فيها عاد إلى أحسن حال، وأحسن سرور، وأحسن حضور، فيوسف تحول من حال الحبس والاضطهاد إلى النبوة والملك، وأبوه -عليه السلام- بُشِّر بالانفراد واجتماع الشمل، وتاب

الله على إخوانه، وتاب على امرأة العزيز على كلام بعض أهل العلم، ودخل العزيز في الإسلام، وعادت كل آثار القصة إلى الخير وإلى الانفراج وإلى الفرح وإلى السرور؛ فكانت أحسن قصة، لكن دعونا من كلامنا نحن إلى كلام الذي خلقنا -سبحانه-، ودعونا من حديث أهل الأدب، وأهل العلم، وأهل الشعر إلى كلام الذي خلق العلماء والشعراء والأدباء جل في علاه، والله -عز وجل- وصف كتابه وكلامه أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه معجز ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾ [الإسراء: ٨٨] فيا كتَّاب، يا شعراء، يا أدباء ويا مفكرون، اجتمعوا ثم خذوا لكم الشجر أقلامًا، واجمعوا البحار مدادًا، واجعلوا صحيفة السماء ورقة، واكتبوا ما شئتم، فآية من آيات الباري - جل في علاه - تفوق ما كتبتم بمراحل تعجزون عنها.

بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿**الر**﴾، قال أهل العلم: الله أعلم: بالمراد سبحانه، وقال بعضهم: بل الله أراد أن يتحدى العرب؛ لأن معجزة الرسول ﷺ في البيان وفي القرآن، وفي هذا الكتاب الخالد، قل: يا عرب، يا فصحاء الدنيا، يا خطباء العالم، يا شعراء المعمورة: أنتم أفصح الأمم قاطبة بلا تحيز ولا محاباه ولا مجاملة، باعترافكم واعتراف غيركم من غير العرب، قد يكون من غير العرب أهل فنون أكثر منا، أو أهل حضارة أكثر منا، أو أهل شعر أكثر منا، أو أهل تأليف أكثر منا، لكن العرب بالذات أهل فصاحة

وبيان، فالله أرسل محمداً ﷺ أفصح الناس، حتى قال له الصحابة: يا رسول الله، «ما رأينا أفصح منك هكذا». روي في الحديث، وذكره صاحب كنز العمال بسند لا بأس به، قالوا: «ما سمعنا أفصح منك يا رسول الله» فأخبرهم ﷺ أنه أفصح الناس؛ لأنه من قريش وتربى في بادية بني سعد حيث الفصاحة، ثم إن الله تولى عنايته فأخرجه أفصح من نطق بالضاد وتكلم ﷺ بها. ثم أنزل عليه الكتاب العزيز الذي يأخذ الألباب، ويذهب بالعقول إشراقة وحلاوة وتلاوة وإعجازًا ودليلاً وبرهانًا، هذا هو الكتاب. فيقول: يا عرب، يا من غلبتهم الناس بالفصاحة، هذا (أ) (ل) (ر) الحروف من كلامكم، أنتم تتكلمون بهذه الحروف، ملأتم الدنيا ضجيجًا ومحاضرات ودروسًا وخطبًا ولقاءاتٍ وحوارات من «ألف» ومن «لام» ومن «راء»، ومن «ميم»، ومن «نون» ومن هذه الحروف تأتون بكلام مثل هذا الكلام، لكنكم لا تستطيعون أن تأتوا بكلام يشبه كلام الله، حتى قال بعض العلماء: مَثَلُ كلام الله -جل في علاه سبحانه وتعالى- وكلامنا مَثَلُ هذا التراب الذي معنا نحن نبني فيه بيوتًا من تراب، ونبني به أدوات من خزف وفخار فنشرب بها الماء، ونأكل بها الطعام، وهي من هذا التراب الذي لا نستطيع أن نخلق منه إنسانًا، الله خلق من هذا التراب الإنسان، فمن هذا الكلام نستطيع أن نلقي درسًا ومحاضرة ومقامة وقصيدة، لكن لا نستطيع أن نأتي بمثل هذا القرآن، فالله أنزل القرآن بهذا الكلام فأعجز الناس بهذا الكتاب، الذي أنزله على رسوله -عليه الصلاة

والسلام- وتولى حفظه وتحدى به العالم، وجعل فيه البركة والخير والنور والهداية والشفاء والعافية، وأنا أقول لكم بصريح العبارة ويسمعني من يسمعني: مسكين من لم يتدبر في اليوم ولو صفحة من القرآن، مسكين من لم يكن له وِرْدٌ، ولو قليلاً من هذا الكتاب الخالد، فقير ومسكين وهزيل ومعدم من قدَّم المجلات والصحف وكلام غثاء الناس، ونفثات الشعراء، وهمز السحار، ونفث الكهان على كلام الرحمن -جل في علاه-، اقرأ وتدبر. القلب الذي لا يوجد به شيء من القرآن كالبيت الخرب، يقال لك يوم في الجنة: «**اقرأ وارتقِ ورتل، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»، فعلى قدر حفظك تترقى في درجات جنات النعيم، وأحسن من ذلك من عمل بالكتاب ولو لم يحفظ إلا جزءًا أو سورة أو ثلاث سور، لكن من حفظه وعمل بما فيه فهو الكامل بلا شك الذي يرفعه الله -سبحانه وتعالى- بهذا الكتاب.

فالله يقول في سورة يوسف: ﴿**الر**﴾ وإذا أتت الحروف المقطعة ذكر بعدها مدح القرآن، أو ذكر الكتاب المنزل على محمد ﷺ ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ من هذا الكلام، من هذه الحروف أتت آيات الكتاب المبين، كل واحد له كتاب، وكتاب الواحد الأحد القرآن، كل مؤلف وكل شاعر يعتذر في أول كتابه من التقصير، أو الوهن، أو السهو، أو النسيان، إلا الواحد الأحد لم يعتذر في أول الكتاب وحاشاه، بل قال: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ لا نقص فيه ولا تقصير ولا استدراك ولا ملاحظة، بل التحدي به والنور فيه،

والدليل القاطع ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، وإنما سماه كتابًا لتجمع آياته كالكتيبة يتجمع بعضها إلى بعض؛ فهذا كتابه - سبحانه وتعالى -، هذا كتابه الخالد -جل في علاه- ويكفينا شرفًا أن الله تكلم به، ﴿الْمُبِينِ﴾ قالوا: الذي بيّن الحلال والحرام، إنه بيَّن للناس ما نزل إليهم فيه من الأحكام والعقائد والأدب والأخلاق والسلوك والمعاني ما صغر منها وما كبر، فلله الحمد على أنْ بَيَّنَ لنا ديننا في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ، والحمد لله أنه جعله مبينًا فصيحًا سهلاً ميسرًا يفهمه الحاضر والبادي، والكبير والصغير، والمتعلم والأمي.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ مَنْ هو؟!!! إنه الله يتكلم عن نفسه - جل في علاه - في القرآن (نحن وإنا وأنا) فلله الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال: ﴿إِنَّا﴾ لم يقل: أنا، قال ﴿إِنَّا﴾ هذا للتعظيم لكثرة صفاته وأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وما اجتمع له - سبحانه وتعالى - من كمال وجلال وجمال، فقال سبحانه وتعالى بالجمع: ﴿إِنَّا﴾ قدم الضمير تشريفًا لما سوف ينزله لتنصت الأسماع لهذا الكتاب المنزل المبارك على رسوله - عليه الصلاة والسلام - يقول ﴿إِنَّا﴾ ثم تتوهم أو تنتظر ماذا يقال لك: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ ولم يقل «خلقناه» وهو رد على المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، بل كلامه - سبحانه وتعالى - منزل تكلم به، وليس مخلوقًا، بل هو من أمره جل في علاه، تكلم به - سبحانه وتعالى - نزل به جبريل على قلب محمد -عليه الصلاة والسلام- يُكتب بالصحف ويقرأ ويحفظ، فتعالى الله -سبحانه- الذي نَزَّل هذا

الكتاب وتولى حفظه، وهو من كلامه -سبحانه- سماه كلامه ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أَنْزلَناه ولم يأتِ في القرآن نَزَّلْناه، قال بعضهم: إذا قال: «نَزَّلناه» فهو المقطع المنجم على فترات من سماء الدنيا إلى محمد ﷺ، وأما «أنْزلَناه» فدفعة واحدة، وجملة واحدة، ومرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا والله أعلم. قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ وهذا خطاب خفي لمن أراد الهداية، أنزلناه على محمد ﷺ، قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وهنا وقفة مهمة، فمن صفات هذا الكتاب أنه عربي، قالوا: فأحسن اللغات، وأوسعها في المعاني، وأكثرها تبيانًا للفهم، وإيصالاً للمعلومة، وإيقاظًا للذهن هي اللغة العربية، ذكر ذلك الآلوسي والزمخشري والقرطبي ببيان، والحقيقة إن هذا أمر معلوم، حتى قال بعض الذين تكلموا باللغات وألَّفُوا فيها وكتبوا: في اللغة العربية أربعون مليون كلمة، وبعض اللغات الأخرى أربعون ألفًا، فالله نزل هذا الكتاب بهذه اللغة، جاء في بعض الآثار: «أن لغة أهل الجنة العربية» والله أعلم، والقرآن عربي، ولغة محمد ﷺ عربية، ولغة أهل الجنة عربية، فنسأل الله أن ندخل جناته ثم نتكلم بعد ما ندخل باللغة المقدرة، المقصود أن ندخل من الباب حتى يقول من يتعصب للعربية لأن تهجوني بالعربية: أحسن من أن تمدحني بالأعجمية، فيقول ابن تيمية: من حب الإسلام أن تحب العربية؛ لأنها لغة القرآن، ولغة محمد ﷺ، وهي التي نزل بها الوحي وأتى بها الحبيب، فإذا رأيت إنساناً يمدح لغة أخرى على حساب العربية ويذمها ويتنقصها فاعرف أن في

دينه وخزًا، ولعل به شعبة من شعب النفاق، فأنا لا أقول: لا تتعلم لغات أخرى، بل أقول من هذا المنبر: إن تعلم اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية وغيرها مما يقوي معلومات طالب العلم الداعية المثقف، ويجعله واسع الاطلاع على ثقافاتهم وعلومهم أمر مهم، لكن أن تأتي بلغة أخرى وتصفها على حساب القرآن، ولغة محمد ﷺ ولغة المؤمنين، ولغة أهل بدر ولغة الخلفاء الراشدين فهذا ليس مقبولاً؛ لأن بعض الدعوات كما ذُكِر تدعو إلى ترك اللغة العربية أو الاستغناء عنها، أو الخروج عن النص العربي الفصيح إلى العامي والشعبي، واللغات الدارجة، وهذا خطأ لا نقره ولا يقره أهل الاسلام، وعلماء الأمة والحمد لله بالإجماع. قال: الحمد لله الذي نزله عربيًا، والحمد لله الذي يسره لنا حفظًا وتلاوة وتدبرًا وفهمًا ومعرفة، قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حتى تعقلوا ما فيه ولو كان صعبًا، فلو نزل بلغة أخرى، ثم احتجنا إلى أن نتدبر ما فيه، أو أن يتوصل أحدنا إلى بلاغة كلماته لأصابته الكلفة والمشقة إلى أن يعرف ما في هذا الكتاب، انظر إلى أن بعض الأفراد كالباكستاني والأفغاني والهندي كيف يصعب عليهم القرآن مع أن الله أكرم بعضهم بحفظه، وأصبح بعضهم يدرس أبناءنا؛ وهذا من شرف هذا الكتاب، فمن يحمله يشرف به عند الله - سبحانه وتعالى - لكن الله - عز وجل - سهله لنا نحن العرب، فهم يجدون فيه صعوبة في ألفاظه وفي معانيه حتى التركيب أحيانًا بعضهم يحفظ القرآن لكن لا يدرك فيه التركيب والعبارة، ولا مدلولها أو بلاغتها

أو جمالها، فنحن نحس بجمال القرآن وبيانه وروعته أكثر منهم، وقد يكونون أفضل منا في أفرادهم، أسأل الله أن يتقبل من كل مسلم عمله الصالح، حتى إن بعضهم ذَكر لي: أنه كان يأخذ لفظًا من القرآن فيسمي ابنه بهذا اللفظ، ويقول: يكفي أن هذا في القرآن، وهو لا يدري من أين هو، من أين هذا اللفظ، لا يدري يقول: قد سمع الله، يسمي ابنه: سمع الله هذه ألفاظ، ما يدرون أن سمع فعل والله - سبحانه وتعالى - اسم الجلاله -، ما يركب الاسم كذا، يقول: عبدالله، سمع الله، وعبدالرحيم سمع الرحيم، فهذا يقع فيه الكثير، إنما نقول: الحمد لله، وأن الله دلنا بكتابه نحن العرب إلى سهولة المعنى، وسهولة أن نفهم هذه الرسالة الخالدة التي أتى بها أسمى الخلق، وأن نفهم ماذا قال لنا إذا كانت لنا قلوب، إذا كانت لنا أبصار وبصائر، فهذا الذي قلبه بشهوات الدنيا؛ لأن بعض الناس يأتي قلبه محملاً بالأغاني والأماني والانصراف إلى الدنيا الفواش فلا يفهم المعنى، لا يفهم القرآن، لما ران على قلبه حتى تجده يفهم القصائد الدارجة والشعبية والجلسات والمجلات والملحقات والدوريات، لكن مع القرآن في قلبه غشاوة والعياذ بالله، فمن أراد أن يفهم هذا الكتاب فليأتِ وليتدرب وليستغفر وليتب وليسأل الله الهداية والتوفيق والفتح من عنده، وليمرغ وجهه في التراب لربه كما قال ابن تيمية: كان عمره ثماني سنوات، كان يمرغ وجهه في التراب يقول: يا معلم إبراهيم علمني، يا مفهم سليمان فهمني، ابن تيمية ثماني سنوات، الآن نأمرهم بالصلوات، والحريص منهم من يصلي معك، وقد لا يفهم شيئًا،

لكن هو مرغ وجهه في التراب في التراب ويقول: يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني، قال: تصعب عليه معاني بعض الآبيات فيقرأ مئة تفسير أو أكثر، ويرى هناك معاني آخرى، قال: يفتح الله من المعاني ما لا أجده في التفاسير وليس مكتوبًا، يفيض الله عليه رحمه الله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذه رسالة موجهة لمن يعقل، قال الحسن: القرآن كلام الباري - سبحانه وتعالى - أرسله لعباده، وقال أحد الصالحين: مثل الذي يعرف معاني القرآن كمثل رجل أتاه كتاب الملك وعنده سراج، فأخذ يقرأ كتاب الملك على السراج، فصرف ما في الكتاب وأدى ما في الرسالة، فأجاب الملك، ومثل الذي لا يعرف معاني القرآن كمثل رجل في ظلمة وليس معه سراج، فأتاه كتاب الملك فوضعه على صدره ما استطاع أن يقرأه، فأخذه في وجل، وفي خوف، عنده الكتاب لكنه لا يدري ما به من معاني، فانظر إلى هذا، وانظر إلى هذا، واحذر أن تكون من الثاني، قال سبحانه ﴿نَحْنُ﴾ ليس أحد غيرنا، لا مؤلف كتب ولا لفيلسوف، ﴿نَحْنُ﴾ حق له سبحانه أن يعظم نفسه وهو العظيم، وحق له أن يمجد ذاته فهو الماجد، ﴿نَحْنُ﴾ ما أعظم الله، ما أجله سبحانه وتعالى، الجأ إلى الله يا غافلاً في ذنوب اللهو، يا ساهياً، يا لاهيًا ارجع إلى الله واستغفر جلالته، والله والله لن تلقى سوى الله الواحد الأحد يقول ﴿نَحْنُ﴾ الذي يبقى ويُفْني الملوك، هو الغني وغيره الفقير، الذي يبيد الدنيا ومن عليها وهو باقٍ يقول عن نفسه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ويقول:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ تعالى الله وتقدس، لا تمدحه بأعظم ما مدح به نفسه سبحانه وتعالى، وأنا أوصيكم بتكرار قول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إذا أردت أن تمدحه سبحانه، أنا أعرف بعض الفضلاء يقرؤها مئة مرة، وبعضهم يزيد على ذلك، قال: ﴿نَحْنُ﴾ يا محمد وأتباع محمد ﷺ القصص من عندنا، بعد محمد ﷺ ظهرت القصص، كنقوش بوذا، وألف ليلة وليلة، كلها انتهت إذ ليس لها قيمة، يذهبون الآن ليأخذوا ثقافتهم من الغرب ويطبقوا عليها تربية أبنائهم في البيوت، وتوجيه أسرهم وزوجاتهم وبناتهم، فهؤلاء أحسن الله عزاهم في إيمانهم ورسالتهم، أتانا جيل المعتقد العبادة والآداب والأخلاق والسلوك، انته عما أنت فيه من الغفلة، املأ بيتك نورًا إذا أردت أن يكون لديك نورٌ، اجمع أولادك وبناتك وقص عليهم قصة يوسف، أو إبراهيم، أو أهل الكهف، أو أصحاب الفيل، أو ما شئت، أما من يسعى بالكذب الذي يروج له العالم الآن، ففي ذلك تشويش على عقائد الناس، فرأيت بعض الكتب التي تنشر التوهين في التوكل، وفيها دغدغة للمشاعر وهتك للأعراض، واقتحام للحرمات، وقبح في الفضيلة، ونشر للرذيلة، فهذا الكتاب الذي أنقذنا الله به، وأنقذنا برسوله ﷺ قال ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ اترك القصص الأول، اترك الخرافات، اترك مجالس السمر، يأتي به جبريل من عند رب العالمين، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فقصص القرآن من أوثق القصص وأحسنها لثلاثة أسباب:

الأول: لعظم المصدر؛ لأنه من عند الله الواحد الأحد، من محمد إلى جبريل من رب العالمين هذا سند صحيح، هذا هو السند، فإذا سلكت القرآن والحديث وصلّك هذا السند إلى جنات النعيم، يقول ابن تيمية: أهل الحديث الذين انتسبوا إلى هذا السند عن جبريل عن محمد عن رب العالمين لهم حظ من قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. وأهل الفلسفة لهم حظ من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

قال: أهل الحديث والسنة بمنزلة أهل الصحابة والسنة، وأهل الفلسفة والمنطق بمنزلة المنافقين في عهده ﷺ، قال: وليس في العالم أحدٌ كله يدور معه الحق والحجة إلا محمداً ﷺ وأما غيره فيحتاج قوله إلى أن يحتج له.

الثاني: أنه لا قوالة فيه ولا كذب ولا مبالغة. أكثر الروايات التي تبث الآن هي من نسج الخيال حتى يعلموا أبناءنا القصة، ليحصلوا بها على جوائز، فيذهب الابن إلى البيت يخطط الكذبة، ويحضرها في الصباح، ويقدمها في الدفتر، فَتُقدم له الجائزة، فأين الأخلاق والتربية؟!! وأين المبادئ في تلك القصص؟!! إن في القرآن الكريم من القصص ما يغنينا عما كتبه ضعفاء النفوس، وعديمو الإيمان، فهذه قصة يوسف موجودة، وقصة إبراهيم، وقصة آدم، وقصة الأعراف، عندنا القرآن، عندنا تاريخ يكفي الغربيين، فلسنا بحاجة إلى قصص من نسج الخيال والكذب؛ لأنه ليس عندهم كتاب خالد، حتى القصص التي نالت جائزة نوبل، مثل قصص نجيب محفوظ أكثرها من الخيال، فهي ليست حقائق واقعة، ومع ذلك أُعطي جائزة نوبل وغيره كثير.

الثالث: أن في قصص القرآن نفعاً وتربية وعودة إلى الحق، ونهياً عن الباطل بخلاف القصص الأخرى التي تخرج بالإنسان من عالمه، مثل قصص هنداوي وغيره من القصص التي تجده بالغ إلى درجة أن يصاب الإنسان بالوسوسة والتخيل، حتى أصيب بعض الناس بالمرض بسبب الكتب القصصية التي قرأها، وأنا أحذر إخواننا من الاعتماد على هذه القصص الخيالية أو الترويج لها في الأسواق، فليعودوا إلى كتاب الله، وإلى قصص الأنبياء، وقصص الصحابة رضوان الله عليهم وجمعنا بهم في دار الكرامة. قال سبحانه: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ يقول بعض المفسرين: «إن الصحابة اجتمعوا عند الرسول ﷺ، فقالوا: يا رسول الله مللنا فلو قصصت علينا يا رسول الله، فأنزل الله ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ قالوا: يا رسول الله «لو وعظتنا» فأنزل الله ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم**﴾ فالقرآن هو الموعظة، والقرآن هو أحسن القصص، والقرآن هو أحسن الحديث، هذا للذي عنده قلب، وقد شرح الله صدره بالقرآن، أما الذي قلبه مغلق معرض فلا يستطيع تدبره وفهمه، فلماذا تنهزم الأمة؟ ولماذا تتأخر؟ ولماذا تظهر هذه الأمة بهذا الخور؛ وهذا الفشل ولا تنتصر على الأمم ؟ نعم. عندنا كتاب انتصر به محمد ﷺ وانتصر به أصحابه، وهو القرآن، اعتصموا به فرفعهم الله ومجدهم، وأعظم قدرهم وشرفهم على العالم، فلما تركنا هذا النور تأخرنا وهَزَمَنَا أعداؤنا.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ استمع إليها الآن، فقصص القرآن لا تكون مجردة علمياً، بل سوف يُقَدَّم لها بمقدمات وتختم بخاتمة، وفيها إشراقات وبيان ومداخلات، وسوف يقدم لك مفاجآت بالسورة، وسوف يستمر معك من أول السورة إلى أن تصل معها في الآخر، وأنت في إثارة وفي بكاء وفي ذهول، يقول أهل العلم في السند الحسن: «كان عمر إذا صلى بالناس وبلغ قوله ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ انهار باكيًا في صلاة الفجر فبكا المسلمون معه» وكان كثيرًا ما يقرأ سورة يوسف، أما أبو بكر الذي سبقه بالإيمان كان إذا قرأ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ بكا فبكا الناس، قالوا: «ومن أتته مصيبة فقرأ سورة يوسف وجد منها من الفرج ومن الرزق ما الله به عليم».

وابن جرير يسأل في التفسير: لماذا ذكر الله سورة يوسف، وقصها للناس؟ وذكر الذنب الذي تعرض له يوسف -عليه السلام- قال: «ليكون أسوة لكل من وقع في مثل ذلك، ولكل من وقع في كُرْبة، وكل من وقع في مصيبة، وفي هذا الموقف الضنك فهذا قدوة وإمام لهم عليه السلام».

قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عما عُرِف به قبل، فلم يكن عنده -عليه الصلاة والسلام- آية من القرآن، ولم تكن عنده نبوة، فالله بعد ما عرفه رفع فضله وقدره بما عَرَّفَه من العلم والنبوة والرسالة ﷺ، فكل من لم يهتدِ بهدي الله الذي أرسل

به محمداً ﷺ سيكون من الغافلين، بل من الضالين المحرومين من رحمة الله سبحانه وتعالى.

نبدأ الآن قصة يوسف -عليه السلام- المُربَّى في بيت النبوة، في بيت يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ثلاث أنبياء وهو رابعهم، من هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟ هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، قال الرسول ﷺ: «الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» أربعة أنبياء في سند واحد، فأراد الله أن يرزق هذا الطفل النبوة في المستقبل، فلابد أن يمر بمحنة وهو طفل عمره اثنتا عشرة سنة. أراد الله أن يعلمه شيئًا من التدرج، أن يمر بشيء من المحن حتى يؤهله للنبوة، وهو في بيت النبوة، وكان ليعقوب -عليه السلام- اثنا عشر ابنًا، وأما يوسف وبنيامين فهم من أم، وأما العشرة فهم من أم أخرى، ولكن يوسف أحبهم إلى يعقوب؛ لأنه أذكاهم، وأفصحهم، وألمعهم، وأجملهم، قَسَّمَ الله الحسن في العالم إلى نصفين، نصف اشترك فيه ذرية آدم إلى قيام الساعة، والنصف الآخر ليوسف، تصوروا هذا يقول المتنبي:

حَبِيْبٌ كَأَنَ الحُسنَ كَانَ يُحِبُّه

فَآثَرهُ أو جار في الحُسْنِ قَاسِمُه

لقد آتاه الله نصف الحسن حتى إن نبينا ﷺ قال: «**قد رأيت يوسف - عليه السلام - قد أوتي شطر الحسن**» فالله ميز بعض الأنبياء على بعض بشيء، مثل: «داود» أعطاه الله الصوت الذي يسلب الألباب، يقرأ كتابه «الزبور» فتأتي الطير مثاني، وتقف

الدواب، ويقف الناس يسمعون هذا الكلام لداوود -عليه السلام- وآتى الله «محمدًا» المقام المرفوع، وَفضَّلَه على الأنبياء، المقام المحمود في الآخرة وغيرها من المقامات العظيمة، فهو أفضل الأنبياء -عليه الصلاة والسلام-، أما يوسف -عليه السلام- فقد أوتي نصف الحسن والجمال كما سبق، ولنا أن نتصور النساء وهن يقطعن الفاكهة فتقطع الواحدة منهن يدها بيدها، وقد جاء التعبير في القرآن بقوله: ﴿**قَطَّعْنَ**﴾ بالتشديد بدلاً من «قَطَعْنَ؛ وذلك للإشعار بعدم إحساسهن بالألم مع حركة السكين ذهابًا وإيابًا. ويقلن حاشا لله ما هذا بشراً، هذا نزل من السماء أو نزل من الجنة، فقد كان يغلب حبه عند أبيه عن الآخرين، كان يعقوب يضمه إليه ويمازحه، ويقبله، ويذهب معه إلى مصلاه، ويعود معه، وإخوانه لأبيه يلحظون ذلك ويرصدون له المواقف والحركات والسكنات، ويتأثرون بذلك.

يقول العلماء: نام يوسف تلك الليلة، وفي بعض التفاسير قالوا: إنه نام في ليلة القدر، وقال بعضهم: إن ليلة القدر أعطيت محمدًا ﷺ فقد اختص الله بها محمدًا، وقالوا: ليلة الجمعة، الله أعلم، غير أن المهم أنه رأى رؤيا في المنام، فقام الطفل وذهب إلى أبيه، وقال: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾، يقول: يا أبتي رأيت في المنام أن أحد عشر كوكبًا مثلاً، العقرب والثور وغيرها من هذه الكواكب العظيمة عند العرب ومعها الشمس والقمر نزلت من السماء ونزل معهما أحد عشر

كوكبًا أمامي وسجدوا لي أنا، هذه من العظمة، هذه رؤيا عظيمة تبشير بالخير والمستقبل الزاهر، قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ إخوانه، والشمس والقمر، أبوه وأمه كلهم خروا له ساجدين، فعرف يعقوب -عليه السلام- الأمر لأنه كان يعبّر الرؤى، فقال له: انتبه لا تقل لإخوانك شيئًا عن هذه الرؤيا؛ لأنها رؤيا عظيمة وجليلة، وبشرى سارة، وفتح مبارك وشيء مذهل، لا تخبر أحدًا اتركها بنفسك. قال: يا بني، هذا إنذار من يعقوب إلى يوسف لا تقص هذه الرؤيا على إخوانك، قال أهل العلم: في هذا الأمر مصلحة شرعية، فمن كانت عنده رؤيا صالحة فلا يقصها على أي أحد كان؛ لأن بعض الناس يحسدون، فإذا كنت في نِعَم فاكتمها إلا عمن تحب.

قال: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، في القرآن كدنا لهم وكدتهم، يقول: إنهم يكيدون كيدًا، وأكيد كيدًا، يعني يكيدهم -سبحانه- وفي القرآن كدنا ليوسف، يعني: صنعنا الحيل لصالحه ضد من خاصمه ومن عاداه، قال: والكيد الإيذاء في الخفاء فلا يواجهون خصمهم عيانًا، بل يلتمسون أستر الأساليب وأخدعها فيوقعونه في ورطة، وهذا هو الكيد؛ لذلك عند النساء كيد عظيم؛ لأن المرأة تجيد في الغالب أن تكيد إلا من عصم الله، قال: يأتونك من حيث لا تدري، إما أنهم يدبرون اغتيالاً لك، أو سوف يزوِّرون عليك عند الناس، أو سوف يقاطعونك ويهجرونك، ثم أتى يعقوب -عليه السلام- يعتذر ويخبر أن هذا من

طبيعة البشر منذ أن خلق الله السموات والأرض، وأنه ما خلا جسد من الحسد، وأن المعصوم من عصمه الله، وأن النفوس يغلب عليها أن تستأثر بالخير لها وتكره الخير لغيرها.

قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قال: إن هذا الحسد من الشيطان، هناك شيطان سوَّل لهم وأملى لهم، وليس من طبيعة إخوانك؛ فهم أهل خير وما رأينا فيهم إلا الصلاح، ولكن الشيطان يثير الفتن بين الإخوة، وبين الأحباب، فاحذروا الشيطان وحاربوه بما أمرنا به الله -سبحانه وتعالى- به من الذكر والتحصن بطاعته -عز وجل- واتباع الرسول ﷺ والصلاة بخشوع.

قال يعقوب: أما إذا كتمت الرؤيا ولم تخبر إخوانك، واستعنت بالله، وأصلحت ما بينك وبينه فأبشر بالخير، فإن الله سيصطفيك ويجتبيك ويختارك على العالم، لتكون رسولاً مثل ما اختارني واختار أبويك إسحاق وإبراهيم، فالله يختار من يشاء، وقد يجتبيك إذا أطعته فتكون وليّاً بين أوليائه، وهذا أعظم منصب في الحياة أن تكون وليّاً لله، ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فاحرص على أن تكون عبدًا صالحًا منيبًا مخلصًا لله فهذه أعظم مكانة.

قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، قال بعض المفسرين: يعلمك من النبوة، أو تأويل بعض الأحاديث، أو إعطائك العلم النافع، أو تعبير الرؤيا، وهذا كله حصل له، يقول:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، وما الأمنية؟ توفني مسلمًا. قال: ويعلمك من تأويل الأحاديث، فتكون أولاً معبرًا ومفسرًا، آتاه الله الملك -عليه السلام- فملك مصر، وكان نبيّاً يعلم الناس، ويعبر لهم الرؤى، ويتم نعمته عليك، فالنعمة يتمها الله على من يشاء من عباده، لكن إتمامها هو فضل من الله ثانٍ يستمر على الإنسان حتى يلقى الله -سبحانه وتعالى- والنعمة تامة عليه، لقد امتن الله على عباده فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ قال: ويتم نعمته، أي: يجعل نعمته عليك متصلة العطاء غير منقطعة بالانتهاء حتى تلقاه في يوم الجزاء، وإتمام النعمة على العبد من الله هي دوام الاستقامة على المنهج الحق والألوهية والعبودية حتى يلقى ربه -سبحانه وتعالى- ثم بَيَّن يعقوب أن هناك نَعَماً سالفة من الله على آباء يوسف، يعقوب، وإسحاق وإبراهيم، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾، قال: على آل يعقوب جميعًا، وإذا حصلت لك النعمة فتمت النعمة على آل يعقوب بالرسالة والنبوة، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، فإبراهيم أبو إسحاق، لكن قدم إبراهيم لفضله -عليه السلام- وعلى إسحاق وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾، وقد تمت النعمة له بالخُلَّة أن اتخذ الله إبراهيم، خليلاً، واتخذ محمدًا خليلاً عليهم، الصلاة والسلام، فمن

كثرة منازله العظيمة أعطاه الله الحب إلى درجة الخُلة، وأحسن الحب، فهو خليل الرحمن، مُكرم الضيفان، مُكسر الأوثان، عليه الرضوان من الواحد الديانَ، قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ سمى الجد أبًا، وهذا يستدل به على أن الجد أبًا في المنزلة وفي الكرامة والحفاوة وفي الميراث إذا مات الأب قبل الجد، قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاكرام، ﴿حَكِيمٌ﴾ بإتمام النعمة والإكرام، يضعها في موضعها جل في علاه، فالله -عز وجل- له العلم المطلق والحكمة المطلقة، فالعلم المطلق له سبحانه لا جهل فيه، والحكمة المطلقة لا طيش فيها؛ ولذلك من جمع العلم والحكمة فهو العالم حقّاً.

نعود لنقول: إن النبي يعقوب أوصى ابنه وحذره يا بني، انتبه هذه نعمة من الله، وخير ساقه الله لك، أبشر سوف يتم عليك النعمة، سوف تأتيك النبوة، سوف يأتيك الملك، سوف يأتيك العطاء، من الله سبحانه، سوف تأتيك الهداية الربانية، سوف يتوالى عليك العطاء، لكن انتبه إخوانك الآن لا تخبرهم بهذه الرؤيا أبدًا، وإن أخبرتهم فسوف تأتيك مكيدة عظيمة، وسوف تقع معهم في متاعب لا يعلمها إلا الله، وهكذا يقدر الله.